

الفصل السادس

الحياة الحب ، والحب الحياة !

ليس من الميسور تحقيق السعادة الإنسانية بدون الحب ، وأى حياة تخلو من الحب - حياة فارغة جوفاء ، فإن لم تأخذ صورة الحب للإنسان ، فينبغي أن تأخذ صورة الحب للحيوانات أو الأشياء غير الحية كالكتب أو المجوهرات أو الصور أو التحف أو السيارات أو الزهور أو طوابع البريد أو المال . ونحن جميعاً نعرف من الرجال والنساء من قد أصابهم حب الجمع والافتناء ، وهؤلاء قد يبيعون أنفسهم في سبيل الحصول على نسخة نادرة من الطبعة الأولى لكتاب أو قطعة شهيرة من الجواهر . وبعض هؤلاء يمضى بهم جنون الجمع والافتناء إلى غايته القصوى حتى يثير سلوكهم الفزع أو السخرية . ولكن على الرغم من أن سلوكهم قد يدفعنا أحياناً إلى الضحك منهم يجب أن نعرف أنهم يبحثون عن الحب بطريقةهم الخاصة ، وقد بين التحليل النفسى أنهم في الأرجح عاجزون انفعالياً عن حب شخص آخر ، أو أنهم في فترة ما من حياتهم قد أصيبوا بالإجباط في هذا الحب . أما الحقيقة الباقية فهي أنه مهما يكن من شأن الصورة التي تبدو أمامنا فإن الحب عنصر جوهري ولا يمكن الغناء عنه للحياة الإنسانية . وإذا أصبح إنسان في حالة لا مبالاة كلية لجميع الأشخاص وجميع الأشياء فإنه يكون قد أصبح في حالة لا مبالاة تامة للحياة نفسها ، والخطوة الحتمية بعد ذلك هي الموت . بل إن بعض هؤلاء الأفراد التعسرين قد يتخلصون من حياتهم أحياناً ، هل تعرفين هذه الكلمات الجميلة لبورديلون :

العقل له آلاف الأعين ، والقلب له عين واحدة

ومع ذلك فإن ضوء الحياة كلها يجتني حين يجتني الحب !

وإذا قيس الحب بمقياس السعادة الإنسانية فإن أسمى أنواع الحب وأعماقها إشباعاً هو حب الإنسان لإنسان آخر ، فقد يجب المرء الكتب أو الرسم أو الزهور إلى درجة تصرفه تماماً

عن أى شىء آخر ، ولكنها جميعاً لا يمكنها أن تبادل ذلك الحب . أما الحب والولاء اللذان نغدقهما على إنسان آخر فيمكن أن يعادا إلينا لا بصورة غريزية وحسب ، ولكن بذكاء وتفهم أيضاً .

ويضاف إلى ذلك ، وهذا أمر في غاية الأهمية - أن الحب الإنساني أى حب إنسان لآخر حب خلقي ، أما حب الجهاد ، أو حب المرء لما يملك فإنه حب خامد غير متحرك لا ينمو ولا ينتج . فالذى يهوى جمع الأشياء قد يرغب في امتلاك كتاب أو (لوحة) ما بكل قلبه وروحه ، وبعد أن يتم حصوله على ما يرغب وتخبو نشوة امتلاكه فإنه قد يبدأ يرغب في الحصول على شىء ثمين آخر ، ليضيفه إلى مجموعته ، ولكن رغبته هذه لن تدفعه إلى تحقيق إنجازات عظيمة ولن تزوده بدافع أو تنبيه إلى السعى من أجل الحصول على أشياء كبيرة من شأنها أن تجعل إنساناً آخر يحبه سعيداً ومبتهجاً .

فالمثل القديم الذى يقول عن الحب : إنه هو الذى يحرك العالم يكاد يكون صحيحاً بالحرف الواحد ، فإن إشباع الذات لدينا هو يقيناً المحرك لكل ما نعمل ، ومع ذلك فإن تحقيق أحلامنا وطموحنا يصبح غير ذى معنى ما لم يشاركنا فيه إنسان نحبه . فالنجاح الذى لا يشاركنا فيه أحد ليس نجاحاً على الإطلاق . فأى غبطة حقيقية يشعر بها إنسان أنجز بنجاح مشروعاً أو كتب مسرحية مكتسحة أو كسب قضية هامة إذا لم يكن بوسعه أن يتقل ذلك إلى إنسان يهيمه الأمر ؟

ولكن حب إنسان لآخر لا يمنع بأى حال احتمال حب أشياء أخرى : كالصور والزهور والكتب والموسيقى والمجوهرات والحيوان . بل إن الأمر على العكس من ذلك : فكلما زادت قدرة الإنسان على الشعور القوى بالمودة العميقة تجاه الناس زادت قدرته على أن يشعر بالحب لكل شىء آخر تقريباً ، وكلما زاد حبه أصبحت حياته كلها أكثر غنى أو سعادة : فالحب يتغذى على الحب . وبمجرد عملية الحب تزيد من قدرة الإنسان على الحب وتغذيها وتعمقها .

وهناك خطأ شائع هو أنه إذا كانت للإنسان علاقة حب فإن هذه العلاقة تلقائياً تجعل من المستحيل عليه أن يدخل في علاقة أخرى بالقوة نفسها ، وهذا بكل بساطة غير صحيح ؛ فإن الحب كالبئر التى لا قرار لها ، كلما تعمقت فيها زاد ما تجده من ماء ، وكلما أحببت زادت

قدرتك على الحب ، لا تحديد للحب بالبطاقات هنا ، فإن القلب المحب لا يتوقف عن الخفقان أبداً .

وعلى العكس للاعتقاد الشائع فإن الوقوع في الحب أثر الصد في حب آخر كثيراً ما يكون مجزياً ؛ لأن الصد يشعل القدرة على الحب لدى المحب المنبوذ وبينهما ، فيصبح هو أو تصبح هي على ترق شديد لإغداق الحب والولاء : فإذا كانت لدى الشخص الذى يوجه إليه مثل هذا الحب القدرة على تبادلته بكل أبعاده فإن النتائج سوف تكون مرضية تماماً ، ولكن الخطر الأكبر بطبيعة الحال فى مثل هذه الظروف أن الإنسان الذى لقي الصد فى إحدى هذه العلاقات قد يندفع فى لحظة إحباط ويأس إلى الارتباط الأعمى بأول شخص يلقاه بعد ذلك دون أن يعنى بالتحقق من وجود أى توافق بينها . وهذا هو السبب الحقيقى فى النهايات الحزينة التى تنتهى إليها كثير من الزيجات أو علاقات الحب التى تعقب الصد فى علاقات أخرى ؛ لأنها أساساً لم تكن لتتجح فى أى وقت وتمت أى ظرف . وسبب الفشل فيها ليس أن أحد طرفى العلاقة الجديدة كان مصدوماً فى علاقة سابقة ولكنه أساساً لأنها لم يكونا ليصلح أحدهما للآخر من بادئ الأمر . ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان كل من الطرفين فى العلاقة الجديدة يكمل بعضها فإن فرص النجاح الدائم لها تصبح كبيرة .

وفى حالة توضيح ما أعنى : وقعت صديقه لإحدى بناتى وهى فى الثالثة والعشرين من العمر وتدعى مرجريت مالنسن فى حب محام ناجح اسمه هوارد واجز . وبعد أن تقابلا كثيراً وعلى مدى عدة شهور تمت خطبتها . وقد وافقت الأستران وباركتا بجاس الزواج الذى كان يبدو فى الظاهر زواجاً كاملاً لأقصى حد ، وهو قد كان فعلاً ، ولكن إلى نقطة معينة . والمثل القديم الذى يقول - « إنك لا يمكن أن تعرف إنساناً إلا إذا عاشته » - يمكن تغييره بسهولة لكى يصبح : « إنك لا يمكن أن تعرف إنساناً إلا إذا أحببته » . ومن ثم فإن مرجريت وهوارد حين بدأ يحفظان للمستقبل فقد بدأ فى الوقت نفسه يكتشفان أشياء جديدة كل واحد عن الآخر : كان هوارد شديد التصمم جداً عنيداً متحكماً و متمسكاً دائماً بتنفيذ رأيه فى كل شيء ، وكانت مرجريت تقول له : « إنك أفضل عميل لنفسك ! » ولكنها من ناحيتها كانت أيضاً قوية الذهن ذات عزم ، فرفضت أن تدع نفسها تخضع له كلية بالرغم من أنها كانت أكثر منه استعداداً للتوفيق وقبول (التنازلات) ، ونتيجة لهذا الاحتكاك فى المزاج فقد

كانا دائمى الشجار ، وظلت خطبتها تتأرجح بين الاستمرار والانقطاع عدة مرات ، ولكن كان عند مرجريت فى النهاية من قوة الخلق ما جعلها تنسى كبرياءها مؤقتاً ، وتفصم علاقتها ، وتنسى كل شىء عن هوارد .

ومرت شهور عدة وكانت شهوراً من الوحدة والتعس بالنسبة لمرجريت ، لأنه ما إن تعرفى معنى الحب حتى تجدى أنه من العسير أن تمضى فى حياتك بلونه . وفى ذات ليلة قابلت فى إحدى الحفلات شاباً صحفياً يرأس تحرير إحدى المجلات اسمه تد بانستر . وكان قد اكتوى بالنار التى اكتوت مرجريت بها نفسها كما عرفتُ فيما بعد . ووجدنا أنها قد انجذبا ، كل واحد للآخر ولكن دون وله شديد ، بل إن ما بينهما كان أقرب إلى الصداقة العميقة والتفهم ، وحين عرفا أن كلاهما قد مر بمحنة مشابهة ازدادت الروابط بينهما توثقاً . وتدرجياً ومع الوقت تحولت الصداقة المحبة بينهما إلى حب ودود ثم إلى ولاء وتفان عنيف . وبعد أكثر من مرور عام على هذه العلاقة غير الرسمية تمت خطبتها وأخيراً تزوجا ، وكان زواجهما ناجحاً ومثمراً . وهذه الحالة توضح أن الناس الذين فشلوا فى علاقة حب يمكنهم أن يدخلوا فى علاقة حب باق ما دام فى وسعهم أن يتركوا قلوبهم مفتوحة . كما أنها توضح كذلك حقيقة أخرى هامة ، وهى أن فترة الخطبة يمكن أن تساعد على تحقيق غرض هام بإتاحة الفرصة للخطيبين للتعرف أحدهما على الآخر تعرفاً دقيقاً قبل الزواج بدلاً من بعده ، حين لا يزال يكون هناك وقت لتدارك الأمر .

وهناك ، بطبيعة الحال ، من يقولون : إن الحب ليس مهماً وأنه عقبة أكثر من عون ، كما أن هناك من النساء والرجال من ينحونه جانباً ويرفضون السماح له باعتراض حياتهم ، وهؤلاء فى أغلب الأحيان متبلدون عاطفياً أو منحرفون عقلياً ، أو أن الأمر معهم ، كما يحدث كثيراً لا يبدو المحصر مع الثعلب فى القصة المعروفة . إن الحياة بدون الحب حياة فارغة خالية من المعنى والهدف .

ومن لحظة مجيئنا إلى هذا العالم فإن وجودنا كفاح مستمر من أجل البقاء ، وبعضنا ينجح فى ذلك وبعضنا يفشل فشلاً ذريعاً ، وأغلبنا ناجح جزئياً فقط . ولكن مهما يكن من الفشل الذى يلقاه المرء فإنه مادام يجد عند رجوعه إلى المنزل إنساناً يحبه ويرعاه ، إنساناً يضمده جراح

روحه فإنه لن يشعر بأن حياته كانت ضياعاً كاملاً ؛ فليس هناك بلسم أو دواء شاف كالخنان والعزاء والمودة من إنسان محب !

فإذا ما حظى المرء بهذه النعمة فإن ذهابه إلى الفراش ليلاً يصبح النهاية والذروة والهناء الذى يتوج ما حققه في يومه كله ، بل إنه يصبح في الواقع طقساً مقدماً : أى أنه بدلاً من أن يكون مجرد المظهر الحيوانى لوظائف بدنية طبيعية فإنه يصبح التعبير الجسدى عن انفعالات جميلة واتحاد روحى . وليس معنى هذا أنه ينبغي أن يأخذ صورة اللقاء الجنسى الفعلى لكى يتزود المرء منه بالإشباع والرضا والسرور العميق الباقى ؛ فإنه أحياناً ما يجد إنسانان السعادة من مجرد وجودهما بعضهما بين ذراعى بعض ! بل إن هذا اللقاء العاطفى يجوز أن يكون فى واقع الأمر أكثر أهمية من اللقاء الجنسى ! وكثيراً من الأزواج يرتكبون خطأ التقارب الجسدى بغرض الاتصال الجنسى فقط . وهذا أمر جميل إذا كان الاثنان يرغبان ذلك ، ولكن فى كثير من الأحيان لا يشعر أى منهما بالمزاج أو الاستعداد الجسدى لذلك ، وفى هذه الحالة يمكنها الاستمتاع بلذة لا حد لها من مجرد العناق والرشف والملاطفة فقط .

والواقع أن مفتاح العلاقة كلها ليس فى الجنس مثلما هو فى المودة والحب . وقد يغير المرء أشد اللقاء الجنسى إثارة دون أن يستمد منه إشباعاً حقيقياً باقياً ما لم يكن فى الوقت نفسه مقروناً بالحب . ومن جهة أخرى يمكن الإنسان أن يشعر بسعادة لا حدود لها من مجرد وجوده فى العفة نفسها مع إنسان يبادل له الحب . وهذا لا يعنى أن الحب الجنسى قليل الأهمية . على العكس من ذلك ، فمن أية زاوية نظرنا إليه رأينا أنه يكون جانباً حيوياً من الحياة الإنسانية ، وكما يقول المثل القديم « الجنس موجود لىبى » . وكل ما يعنيه ذلك أنه فى العلاقة القائمة على الحب الحقيقى ، كما فى الزواج ، يؤدي الجنس دوراً هاماً ولكنه ليس غالباً . فهو يكون جزءاً مكملًا وجوهرياً فى تسيج الزواج فيجمله أكثر ثراء وقوة وأزهى لونا ، ولكنه إلى ذلك كله ليس الخيط الوحيد . والعزب « رجل العلاقات المتعددة » حين يتصل بفتاة تكون رغبته الأساس والفريدة عادة هى الاتصال الجنسى بها ، وقد يستمتع للقاتق قصيرة قبل اللقاء الجنسى وفى أثنائه وبعده مباشرة بأقصى درجات اللذة والنشوة التى يمكن أن يعرفها الرجل . ولكنه استمتاع قصير الأجل عابر وغير باق ، فبمجرد انتهائه يشعر الطرفان من الوجهة الانفعالية والروحية ، وكذا أيضاً من الوجهة الجسدية بالفناد والفراغ ، ويظل هذا الشعور بالفراغ مستعمرًا حتى

المناسبة التالية للقاء أما في حالة الزوجين المؤلفين تماماً فإنها سيشعران بسلام عميق ورضاً بعد اللقاء الجنسي ، فالنشوة الجنسية لن تكون النقطة الأخيرة ، ولكنها تصبح بمثابة إنجاز ونوع من التنجيم والتحقيق المجيد لأعمق عواطفها كلها ، وهذا هو الفارق الحاسم بين الحياة الزوجية والعزوية ، فالحياة في الأولى هي الجنس والحب وهي في الأخيرة الجنس فقط .

بل إن المحتمل أيضاً أن يحب اثنان من الناس بعضها بعضاً حباً عميقاً ، ومع ذلك يمكنها لاحتفاظ في بعض الأحيان بعلاقة تخلو من الجنس نسبياً . وهما في هذه الحالة يمكنها أن يستمتعا بمصاحبة أحدهما الآخر وأن يسعدا من مجرد وجودهما معاً وحسب ، يتناقشان فيما بينهما من اهتمامات مشتركة ، ويذهبان معاً للمسارح أو الحفلات الموسيقية أو معارض الفن أو المباريات الرياضية أى أنه يمكنها أن يرتبطا معاً بدون أن يكون هناك بينها دافع جنسى معين :

كان دكتور جورج لستر في الثانية والخمسين من عمره ، على حين كانت ذكورة جوليت هوفان في التاسعة والثلاثين . وكانا قد عملا معاً في العيادة نفسها : هو كجراح عام وهي كطبيبة أمراض باطنية ، وقد جمعها العمل معاً لسنوات عدة ، هذا إلى ما كان يجمع بينهما أيضاً من اهتمامات مشتركة لافى الطب وحسب ، ولكن في الموسيقى والأدب والرياضة أيضاً ، ثم يضاف إلى ذلك ما كان يشعر به أحدهما نحو الآخر من احترام عميق وإعجاب ومودة كطبيين وكفردين من الناس على حد سواء . وكان يبدو أنها متألفان على نحو مثالي ، وكثيراً ما كنا نساءل : لم لم يتزوجا ؟ والسبب كما عرف فيما بعد - هو أن الدافع الجنسي عند جورج كان ضعيفاً على حين كانت جوليت طبيعية في هذه الناحية ، وأخيراً وبرغم ذلك - فقد اتفقا على الزواج . وقد كانت جوليت تدرك أنها لا بد أن تضحي بشيء ما دام أنه لن يستطيع إشباعها جنسياً ، ولكنها قررت أن الأمر يستحق التزول عن بعض اللذة الجسدية مقابل الاستمتاع بمصاحبة الرجل الذى كانت تعجب به وتحميه بعمق . وقد كان مجرد احتوائها بين ذراعيه ليلاً يمدّها بشعور رائع جميل ويملؤها بأعمق الرضا . ثم نجح زواجهما في النهاية نجاحاً كاملاً . ولكن مجرد كون اثنين من الناس يخبران الحب الجنسي بأنه أقل أهمية في واقع الأمر ، فإن قوانيننا وعاداتنا وتقاليدينا وآدابنا وراثتنا الشعبي كلها تولى العملية الجنسية المجردة أهمية أكبر ولا تعطى اهتماماً كافياً بما ترمز إليه ، وهو حب إنسان لآخر . إن العملية نفسها من الاتصال

الجسدى والنشوة الجنسية ليست إلا نوعاً من الوظائف البدنية . والواقع أنه ليست هناك أهمية أكبر للصورة التي تم بها ، فإن المحرمات الدينية والعادات الاجتماعية والقوانين الوضعية قدسبت وأباححت بعض الأوضاع وحرمت بعضها الآخر ، ولكن كثيراً مما توصف بأنها ألوان شاذة من التعبير الجنسي تجدد القبول في جهات متعددة من العالم .

وإذا فكرنا من الناحية الطبية فإن اللقاء الجنسي من وجهة نظر الطبيعة هو اللقاء الجنسي ، ولا تهم كثيراً الطريقة التي يمارس بها ، وصحيح أن الانتفاس في بعض هذه الممارسات قد يؤدي إلى مضاعفات عقلية وانفعالية مختلفة . ولكن السبب الوحيد في ذلك هو المحرمات المصطنعة التي أحيطت بها جهلاً من الإنسان بنفسه ، فثلاً : كثير من المصابين بالجنسية المثلية^(١) يتعرضون لانهايات نفسية نتيجة لما يثيره الشعور بالذنب لديهم من خوف . ومع ذلك فإذا كانت قوانيننا تحاول مطابقة الطبيعة بدلاً من محاولة مطابقة الطبيعة للقوانين ، كما اقترح د . كترى ، ما وجب أن يكون هناك عقاب أوعار من هذا اللون من الشعور والتعبير الجنسي ، وما ظل ذوو الجنسية المثلية في حالة تصدع ذهني نتيجة قلقهم بخصوص سوء توافقهم الجنسي .

وأنا قد أثرت هذه النقطة لا لأني أقف موقف المؤيد أو المعارض للجنسية المثلية ، أو لأية حالة من تلك التي تعد شذوذاً ، ولكني أود وحسب أن أقرر أن ما يهم فعلاً في أية علاقة بين اثنين من الناس ليس مجرد احتمال أنه يفعل الجنس أو كيف يحدث ؟ ولكنه الحب والتضاني الذي يصاحبه كاملاً وبدون حدود . هذا هو الأمر المهم غاية الأهمية . وفي التحليل النهائي فإن الحياة الحب والحب الحياة ، فليس هناك حب بدون حياة ، وليس هناك حياة بدون حب !

(١) الجنسية المثلية هي اتجاه الدافع الجنسي إلى أفراد من الجنس نفسه ، وقد تكون الجنسية المثلية كاملة دون أي تعبير ووضوح عنها ، أو قد تكون ظاهرة وتدفع صاحبها إلى إقامة علاقة جنسية مع فرد أو أفراد من جنسه نفسه . والاتجاه الآن إلى ربيع الوصمة الملقبة عن الجنسية المثلية أو اعتبارها حالة مرضية تقتضى العلاج (المشرف) .